محمّد باقر الصّدر مثارٌ للأسئلة (١-٢)

عمّار أبو رغيف

بعد اثنين وثلاثين عاماً

ما زال مثاراً للأسئلة الكبيرة، ومشهداً يبعث على الإعجاب والدهشة والعجب، لم تمله اليراعة، والقوافي لم تبرح استلهامه. وسيبقى السيد محمد باقر الصدر إشكالياً في فكره وفي تاريخ مسيرة أيامه، وفي رؤاه وآفاقه، حتى يحدث الله أمراً لا ندري ما هو، ومتى سيكون، وكيف سيؤول أمرنا وأمر الناس مع القادم من أقدار!

أما قدري اليوم فهو أن أتحدث عنه من جديد حديثاً قد لا يكون سامياً مبتكراً، على غرار ابتكاراته وسمو معانيه، غير أن رغبة عارمة تستحوذ على قلمي، وتدفعه بعنف ليحرر ويقول ما لابد أن يقال، بل كل ما ينبغي قوله قولةً لا توارب، أستدعي مخيلتي التي ملأتها صوره منذ أمد سحيق، وأطرح كل الأسئلة التي بوسعي الوقوف عليها، وأحتكم إلى معطيات الواقع لأجيب بعدل وإنصاف عما يسعفني الواقع في الإجابة عليه، وأستدعيه مستفتياً إياه في ما لا يسعفني الواقع فيه، فأجيب وفق مبانيه ما وسعني بذل الجهد في تحرير الإجابة عليه.

قد يكون لهذه الرغبة ما يسوغها عقلانياً، ذلك أن الإبقاء على الصدر تاريخاً وفكراً وإبداعاً حكراً بيد من يريد الاحتكار عمل غير صحيح وغير مشروع. لقد تنبهت في ما مضى إلى هذا المسوغ، فاستحضرت السيد الأستاذ مستعيناً بخياله الخصب فقلت:

هذا في ما مضى أما اليوم فالأدعى أن تتحكم عقلانية رشيدة في فهم ودرس هذا الرجل التأريخي على قاعدة الموضوعية وحرية الرأي. وأنّى لنا ذلك وللضرورات أحكام تمليها اليوم أبشع أ شكال الغرائز، ويفرضها عدوان دموي طائفي يجتاح المحيط كله، ومن ثمَّ لا يزال الالتباس سيد الموقف.

وبانتظار فجر جديد لذنا بفجره مسترشدين بعقلانيته وجرأته لنقول ما هو مشروع قوله في ظل ما تسعه أحكام الواقع، وفي ضوء زجاجة كوكبة، أصلها من بغداد، وزيتها من شجرة زيتونة تجذرت في هضاب جبال عاملة، حيث مهجر أجداده الراحلين إليها من العراق. ومن العراق إلى العراق وردنا حرمه القدسي نلتمسه ونتمثله:

في حضرتك يا طيب القلب أريد أن أتأوه وأتفاءل، أريد أن أبثك حزني الذي استوحيت أخصبه من عمق أحزانك الفريدة. وفي حضرتك أبحث في عواصف الرمال عن آمال ذهب بعضها في مهب أردان يفرضها سوء الطالع، أما ما تخيلت بقاءه من هذه الآمال فهو رهن الملاذ بك. سأكابر بائس الإحباط وألوذ بصومعة أحلامك، لأحلم فيما تثيره من عجب ودهشة، وفيما تبعث عليه من إعجاب وجلال.

سألتمسك مستأذناً لأبدأ الخطاب عفوياً، محذوفاً منه ما تفرضه مهابتك من ألقاب التبجيل وما تتطلبه لغة الخطاب الرسمي.. سأستهدف مناجاتك متحللاً من قيود لغة التعارف، وسأكون مباشراً لأتحدث عن أعماق مشاعري وصدق أسئلتي، فلك الخطاب:

عجيب أنت من تجل مليء بالتحفيز! يقيناً أنك قد غادرت الجموع إلى عالم التفرد، لكنك الموقظ المستفز وأنت تضاجع أهل القبور، يقيناً إن جسدك الطاهر قد أمض به الرصاص والبارود، وذهبوا به منذ اثنتين وثلاثين من السنين العجاف إلى الوادي المقدس، وقد تعب التراب من ثقل المدثر به فتنقلوا بجثمانك، وجل مضاجعيه لا يفقهون حديثه، بل شبعوا موتاً وإمحاء من الذاكرة. أما أنت فلم تبرح الذاكرة من أن تحار بك. أشغلت العراقين، وخاطبت الخافقين. وعبرت الحدود وأنت ظاهرة تستدعي قراءتها استدعاءً قاهراً قهر الحب لمريديه، وإرغام المنازل العنيد لخصومه ومنافسيه!

عجيب أنت من نص تنوعت قراءاته وتنوع قراءه، وعجيبة هي نصوصك، إنها المتون التي يحفر في كلماتها طلاب الشريعة والحقيقة، يتأبطها الزاهدون بمتاع الدنيا، الذين يفترشون الأرض، ويصدحون في المساجد. ويقرأها بجد على مناضد القاعات المرفهون من الحكماء وقادة الرأي على تنوع مشاربهم. حقاً إن نصوصك العجب العجاب، تعشقها العامة ويتخذها بعضهم زبراً دون أن تقرأ، بل تقدس على رفوف، وتتسع لتشظي الخطاب، تتسع للقراءات التي تكسر القيود وتعبر الحدود، وأنت ابن الحدود وخبرت صناعة القيود المنطقية الصارمة.

عجيب أنت من حالم جسور، وعجيبة مراضع أحلامه وعجيب خفاء روافدها، إنها من جنس أسرار الكائنات، وأقرب إلى هواتف كشوف العشاق ومواجيد العارفين في غرابة نسجها ونسيجها. من أين أتى لهذا الفتى اليتيم الفقير فقراً محبطاً كل هذا الطموح، بل طماح الطموحات، الذي أخذه أن ينافس مشيخة الفقهاء وأساطين الأصوليين، وفي عرض ذلك تمادى في أخذه إلى زبوري الاقتصاد «ثروة الأمم» و«رأس المال» ليباري النبيين آدم سميت وكارل ماركس، فيخبرهما أن النبوة قد ختمت، وأنّى لابن فقه الطهارة أن يعمّل أدواته ويؤسس على قاعدة «العلم الإجمالي» نظرية في الاحتمال، أدخلت النجف في ميدان المباراة مع جهابذة حكماء الغرب!

كان حالماً أن يدافع عن الوحي ويفسد أحلام النبيين، وأن يكون ما يحرره من نظرية في الاقتصاد بديلاً عن تحليلات «رأس المال» فكتب عن تناقضاته في تحليل تناقضات المذهب الرأسمالي! هذا هو حلمه اليقظ. أما أحلام الطليعة من أبناء جيله والأجيال التي احتضنته فكانت أن تذهب مواهب اليتامى وأبناء الفقراء والمحرومين لتصطف مع جحافل الشبيبة العمالية وتناصر الشيوعية منقذاً أبدياً!

وإذا كان لابد لبعض المواهب الأخرى أن تكون فقد كانت اقل مخاطرة وأميل إلى مسلك حفظ السلامة والركون إلى العافية، أما أنت فما كانت احلامك قد اقتصرت على الوثوب الى أبراج المعرفة، بل أرادت أن تلامس مخاطر الأرض والإنسان، فنزعت أي نزوع إلى الانخراط في موكب الإصلاح المهيب، وإذا بابن العشرينات قد أمسى العقل المنفصل لأهم حركات الإصلاح والنهضة التي قادها شيوخ عصره وكهول طليعة المدرسة التي أنجبته. فكان يخطط لجماعة العلماء، هذا إذا لم نقل إنه كان القرار، وكان ينظّر لأسس الدعوة، وهو حالم أن يغير العالم!

أي مسلك وعر سلكت وأي طريق شائك تنكبت! عجيب أمرك وعجيب أمر أحلامك التي تحف بها المنايا وتحتضنها التضحيات. أي أحلام هذه التي استولت عليك، أحلام الهمم الكبار بل القاتلات الجسام. أجل قتلتك أحلامك، وكانت منيتك فيها، فالعبقريون تلاحقهم أحلامهم ومناياهم في أحلامهم. وهل أبدعُ من أن يقتل الإنسان على طريق أحلامه النبيلة؟، وأي إبداع إذا كان حلم هذه الأحلام هو أن يقتل في سبيل أن يعانقها ويحظى بها، فيحس حرّ السيف وسيل الدم القاني يخضّب كريمته، فيهتف: فزت ورب الكعبة! إنه إبداع طريقة الموت الذي لا يأتي إلا على غرار إبداع طريقة الحياة!.

الشهيد محمد باقر الصدر

والمدهش فيك أن كل الدويّ الماجد تركته متنوعاً وأنت لم يتجاوز عمرك السابعة والأربعين عاماً، تنوع مجدك المدوي على علوم تنوعت وعلى نشاطات ناءت بحملها الرجال، فمن ثقل وخطورة الحلقة الأولى لتأسيس نهضة عصرك انطلقت وإذا بك تحمل باهظ الأثقال لتتلألأ في المحور الأوسع زعيماً لكل أطياف تيار النهضة والتنوير الإسلامي في وطنك وفي بقاع أخرى، وفقيهاً مرجعاً على تنوع القراءات، وأنت تكاد تبلغ الأربعين.

جسور أنت في اتخاذ القرارات المحرجة، بل كالخيال، أجل حينما خيّروك بين أربع خصال فقد اخترت القاتل منها! مدهش أنت كيف تختار بين هذه الخيارات، اخترت الموت الزؤام منها، ولم تكن يائساً محبطاً، بل كنت مفعماً بالآمال ترنو إلى مجد الأمجاد. كيف تنحاز كل هذا الانحياز الى الثورة الناشئة، وكانت الكتبة تبعث إليك بالتحذيرات، ثم كان الموت ثمن هذا الانحياز؟! ثم كيف تتابعت حلقات الارتباط بحزب الدعوة، بدءاً من لحظات التأسيس الأولى ومروراً بالارتباط الحميم بصديقك الوتر أبي عصام، ثم الرعاية الأبوية في عهد الشهيد عارف البصري، ثم الالتباس الكبير بعد أحداث أربعة وسبعين، فعودة المياه إلى مجاريها بعد تضميد التنظيم جراحه العميقة والملمة ما أمكن من شتاته... وأخيراً موقفك العنيد في رفض خيار رفع الغطاء عن التنظيم الذي كان ثمنه الموت. ثم موقفك المصر على إعادة الحياة إلى جماعة العلماء وتأكيدك الحاسم على قيادتهم الميدان... وإيمانك المصرّ بالمرجعية قائدة للميدان.

ثم كيف المواجهة الشرسة مع أشرس الطغاة في التاريخ، والذي رغم شراسته حاول استمالتك، كيف قررت مواجهة طغيان البعث إلى النهاية وهو ماسك بالأرض ومسيطر على الجو ومدجج بالحديد والنار، والبعث العربي كان يمنيك بزعامة عربية تفوح منها رائحة البترول؟

أسئلة على ذمة التحقيق التاريخي النزيه، والتحقيق النزيه وحده له شرعية الولوج الى هذا الميدان الخطير، الذي يتطلب كل المروءة والإنصاف والجرأة. لا أن يترك الميدان لحاطب، وهو يحطب ليلا بفأس الغرائز، التي ما انفكت ظله الظليل على طول مراحل حياته حتى الساعة! ليس شأنك أن تلعب مع الكبار، فالأكابر التاريخيون يتطلبون علو الهمم ونزاهتها لتأويل مواقفهم التي تنتقل بين حقول الألغام.

إنما المؤكد أنك اخترت أن تموت صبراً، والمندوحة متاحة أن تترك الميدان. اخترت أن تموت موتاً يا سرياً، تستذكر فيه ما استولت عليك عظمته، موت سمية وياسر وجحافل أسلافك وطلائع أنصارهم من حجر بن عدي وميثم التمار حتى عبد الصاحب دخيل وقاسم شبر وقاسم المبرقع وحسين باقر وحسين معن.

إنها رواية طويلة فيها من الظرافة والأسرار ما يستفز المنقبين ذوي المروءات في خبايا التاريخ، وفيها من جلال المواقف وجلل الأحداث ما يثير الاستفهام الحرج على الفنون وأهلها وعلى الآداب في أرض ما بين النهرين، ألم يأن لك أيتها الفنون الجميلة والآداب الرفيعة أن تعيدي كتابة وانتاج هذه الرواية ومئات الروايات الأخرى التي سطرت الأمجاد بيد الشبان والكهول والشيوخ والنساء من أبناء أرض السواد، والتي تنطوي على صيرورتنا الوجودية، وفيها من العمق الإنساني ما يتيح للإبداع أن يحرر أروع الإنتاج وأثراه.

لا تدعوه يقول فيكم كما قال في غيركم:

عقني الأقربون في غمرة الخطب
وَعَـقَّ اللدات والأخـوان
سوف يُملي التاريخ عَنِّي ما يُملي
فَتَـخزَى بظُلمي الأوطـان
يُنـصفُ العبـقريَّ دهرٌ فسيّان
وَفَي أصفياؤه أم خـانـوا

سينصفك التاريخ يوماً، وستغيب الغرائز بأصحابها، وستهدأ النفوس، وستُنزع كلُ السروج، وسينصف العبقريَّ دهر دون غلو الغلاة، الذين أضروك يوم كانوا حملة راية التبشير، فقالوا فيك ما أثار الأضغان، واليوم يغالون بإثارة الغرائز عليك. لك الله من شهيد نبتهل الله عسى أن يُنصَف بعد عقود من قتله!

ثم أي فضيلة متمسكون بها، أفضيلة ألا نكرّم الأفذاذ ولا ننصفهم إلا بعد موتهم؟ وثم أيضاً: أتكريم هذا أن نرفع القباب الشاهقات، وأن ندثر في رفوف الحُجرات وبين مطاوي الكتب والمؤلّفات تراث الأعاظم وإبداع المبدعين، فهم مستعدون لإنفاق المليارات على الصروح الحجريّة، ولا يتحفّز أحدٌ ليرصد زهيد المال لمعرفة جواهر الفكر، وكأن المشاريع تقام على الحجر، المشاريع أيّها السادة تقام على البشر، والتنمية بشريّة.

ولكي لا نختلف فالمبدعون والرجال التأريخيون يستحقون كلّ تبجيل، والصدر يستحق معالي الثريّا، لكن الأولوية لإعادة تظهير تراثه وفكره وتدوين تاريخ مسيرته، الذي يتعرض لمخاطر التشويه. والسيّد يستحق مئات الحلقات الدراسية والمؤتمرات العلميّة، وهي استحقاق بلده وشعبه وأمته، وليست منّة من أحد.

ديمقراطية بلا ملامح

يعقوب يوسف جبر الرفاعي

بعد انهيار الدولة العراقية عام ٢٠٠٣ تبنى النظام السياسي في العراق الديمقراطية شعاراً لكن على مستوى التطبيق هل أنها بالفعل ديمقراطية واضحة الملامح ؟ هل هي ديمقراطية الفقراء أم الطبقة المتوسطة أم ديمقراطية الطبقة العليا ؟

لم تحصل الطبقة الفقيرة على مقومات النهوض بواقعها البائس في ظل ديمقراطية عراق ما بعد ٢٠٠٣ أما الطبقة الوسطى فإنها لا تزال تشكل عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة ، لأن ما تقدمه من إنجاز لا يتناسب مع مستوى ما تتقاضاه من أجور ومرتبات سواء الطبقة العاملة ضمن القطاع الخاص أو القطاع العام ، وهذا يعني أنها طبقة شبه عاطلة لا تساهم في بناء الدولة إلا بحدود متدنية ، أما الطبقة العليا خاصة العاملة ضمن نطاق الدولة فإنها لم تحقق قفزة نوعية في مجال بناء الدولة سياسياً وإدارياً بما يضاهي تجارب الديمقراطيات الحديثة في بعض بلدان العالم المتمدن ، ناهيك عن استيفاء رموزها رواتب ومنافع تفوق الاستحقاق الدستوري .

إن استمرار وتيرة تطبيق الديمقراطية وفق هذا النهج الخاطئ سيؤدي إلى استفحال ظواهر سلبية كثيرة ، منها هدر المال العام وتضييع جزء كبير منه دون أن يشكل أساسا لتطوير مشاريع الإعمار والبناء ، فثمة مشكلات عديدة تكتنف التجربة السياسية الجديدة ، تحول دون التقدم في المجالات كافة خاصة في المجال الاقتصادي ، فالموارد البشرية والطبيعية لم يتم استثمارها بالمستوى الذي ينمي الناتج القومي ويزيد عوائده بحيث يؤدي إلى إغناء الدولة اقتصاديا وإثراء المستوى المعيشي للمواطن وتحقيق الفائض في الإنتاج بحيث يتحول الناتج القومي إلى أداة لتصدير السلع والخدمات للحصول على الأرباح الإضافية. كما أن تطوير آليات وخطط الاستثمار الربحي سيؤدي إلى الاكتفاء الذاتي وتقليص نسبة الواردات ، وتوسعة نسبة الصادرات .

لم تتمكن الدولة العراقية الجديدة من التقريب السياسي بين مختلف الاتجاهات لكي تتحقق الديمقراطية السياسية الحقيقية البعيدة عن الصراعات السياسية الباردة والساخنة ، فثمة أزمة ثقة بين السياسيين وبين الأطياف العراقية لا تزال مستعرة لم تغادر تابوهات الماضي لكي تنتقل إلى مرحلة بناء العقل السياسي الجمعي الوطني المتكامل .

كيف يمكن اعتبار الديمقراطية الجديدة فاعلة لكنها لم تحقق أعلى مستويات التنمية البشرية بدءا من تأهيل المواطن وتعزيز قدراته المهنية والمعنوية ، وانتهاء بتطوير بيئة المدن والقرى والأرياف ؟

كيف يمكن اعتبار الديمقراطية الجديدة فاعلة ومؤثرة ولا تزال القبلية هي المهيمنة على الواقع الاجتماعي حتى وصل الأمر بها إلى التحكم بالعديد من القضايا ومنها فض النزاعات بين المواطنين ، فأين دور قانون الدولة المدني في فض النزاعات ؟ كيف تسمح الدولة للقبيلة أن تكون البديل؟

معادلة الأخذ والعطاء

علي حسين عبيد

الحياة حقوق مقابل واجبات، وأخذ مقابل عطاء، معادلة لا يصح إهمالها، أو عدم العمل بها، لأن النتائج معروفة مسبقا، فالحياة لن تعطي أحدا شيئا ما لم تكن لديه قدرة على تقديم المقابل، وأبسط الأدلة أن الانسان العاطل عن العمل قد لا يجد ما يسد رمقه، حتى لو لم يكن هو السبب في هذا العجز، إذن لا عطايا من دون أتعاب، يبذلها الانسان في صيغ وصور مختلفة، منها تقديم الجهد العضلي أو الفكري أو المادي، بالنتيجة سيكون هناك نوع من التوازن بين ما تأخذه وما تعطيه، ومعادلة الاخذ والعطاء، تؤكد أن أكثر الناس فقرا وحرمانا في الحياة هم الاقل عطاءً من غيرهم، حتى لو كان الامر مفروضا عليهم، بمعنى حتى لو كانت البطالة مفروضة على الناس بسبب حكوماتهم الفاشلة، ومع ذلك لا يصح أن يبقى الانسان فاشلا بسبب الظروف المحيطة به، مهما كان نوعها أو حجمها أو مصدرها، لأن الانسان عقل وطاقة، وعليه أن يشتغل بعقله وطاقته ليعطي كي يأخذ، أي ليعمل كي يكسب.

من هنا تشكلت أيضا معادلة معروفة، هي الحقوق والواجبات، وكثيرا ما نسمع أو نقرأ شكاوى للمواطن البسيط، يقول فيها دائما عبر وسائل الاعلام المختلفة، أن حقوقه مهدورة، وهو واقع حال لا احد يستطيع إنكاره، وهذه الحقوق تتمثل بنقص الخدمات وضعف القوة الشرائية وقلة التعليم والصحة، وغياب أو ضعف الضمان الاجتماعي والصحي وغيرها من الحقوق الضائعة فعلا، ناهيك عن انتهاك الحريات وما شابه، ضعف او فقدان هذه الحقوق يعود الى فشل الحكومات التي تعاقبت على العراقيين، فهي في الغالب حكومات فردية حزبية مصلحية قمعية مستبدة، تستميت في حماية مصالح أفرادها (الطبقة الحاكمة) والمستفيدين منها، وهم قلة قليلة، لتبقى الطبقات والشرائح الاخرى تعاني من ظاهرة هدر الحقوق المزمنة.

البحث عن الاسباب يقودنا الى تحديد المسؤولية، لماذا يعاني العراقيون من ظاهرة هدر الحقوق المزمنة، هل الحكومات فقط هي السبب في ذلك؟ الجواب: كلا، هناك طرف آخر مسؤول عن ظاهرة التجاوز والجهل والحرمان والبطالة وضعف الخدمات وانتهاك الحريات وسواها، هذا المسؤول هو المواطن نفسه، وهو طرف المعادلة الأهم، وحينما يختل التوازن بين طرفي معادلة الاخذ والعطاء، ستنتعش ظاهرة إهدار الحقوق، بمعنى أوضح حين يعجز المواطن عن المطالبة بحقه لأي سبب كان، فإن النتائج ستكون معروفة سلفا.

تبدو القضية إذن حالة صراع، بين المواطن والحكومة، وكلما كان المواطن أكثر قدرة وفهما لادارة هذا الصراع، كان الحق المهدور أقل، فحين يكون المواطن واعيا ستكون خسائره في هذا الجانب او سواه قليلة، وحين يكون معطاءً وفاعلا ومتحركا، يكون تأثيره كبيرا في تثبيت حقوقه وعدم السماح بالتجاوز عليها، كذلك حين يقوم بواجباته كما يجب، فإن حصوله على حقه مضمون حتما، إذ هناك دور للمواطن يتوزع بين الدفاع عن حقوقه والمطالبة بها، وبين قيامه بواجباته تجاه نفسه والآخرين ايضا، تتمثل هذه الواجبات بالاستعداد الدائم للتضحية من اجل حماية الحقوق بأنواعها المختلفة (الحقوق السياسية والاجتماعية والتعليمية والصحية وغيرها)، ناهيك عن واجبه العملي وشعوره بالمسؤولية في المحافظة على المال العام، ليس النقدي، وإنما المنشآت والطرق والساحات والحدائق العامة، ومظاهر النظافة وسوى ذلك من واجبات لابد للمواطن أن يعيرها الاهتمام الذي تستحقه.

هنا تبدو المسؤولية مشتركة بين المواطن والمسؤول، فكلما كان المواطن أكثر شعورا بالمسؤولية واكثر استعدادا للعطاء والقيام بالواجبات، كان المسؤول الرسمي أقل تأثيرا في عملية التجاوز على حقوق الناس، لذا يحتاج العراقيون الى تنمية الشعور بالمسؤولية لديهم، ونبذ الاتكال، ورفض حالة اللامبالاة التي تسود أنشطتهم، في هذه الحالة حتى المسؤول سيكون أكثر خشية من المواطن، ناهيك عن ميله التدريجي الى تصحيح الاخطاء، ومحاولة تفضيل العمل المشترك بين الطرفين الرسمي والاهلي، وهكذا نصل الى تقاسم المسؤولية بين المواطن والمسؤول، من خلال استعداد الطرفين وتعاونهما معا، على خلق معادلة مستقرة ومتوازنة بين ثنائية الأخذ والعطاء.

بين التسمية المباشرة وتأجيلها

محمد عطوان

لنبتدئ مقالنا في بالسؤال الآتي؛ هل أن التابو هو الحد المحرم تخطيه حقا؟ والذي من الصعب المساس بموضوعاته فعلا؟ ومن ذا الذي يملك أن يسمي لنا هذا تابو وذاك ليس بتابو، ليمنحه مداره الخاص والمميز؟ ومن يُصدر هذا المرسوم أو حتى يتجرأ على إصداره؟ نعم، غالبا ما كنت أتردد في الكتابة عن موضوع في هذا الشأن، ولكني كنت أرى أيضا أن له من الأهمية ما يُحرض كثيرين على الخوض فيه والخطو في تربته الندية، ومن خلال اعتباره موضوعا اجتماعيا ووجوديا أيضا، يحتمل المناقشة والمدارسة مثل أي موضوع له صلة وثيقة بمعيوشنا. أقول أتردد في الكتابة؛ لما أخشاه من مزاحمة اللاشعور الجمعي للجماعة المؤمنة، ومن انصداع وجدانها، وهو شأن أكبره.. مثلما أعي أيضا أن الجماعات المؤمنة في العراق لم تتعود المطارحة في مثل هذه الموضوعات، كموضوعات قابلة للقراءة والمراجعة لمن يريد السجال فيها. وبالطبع من دون أن يؤوّل ذلك إلى معنى الإساءة أو القدح أو التجريح في أقصى نواياه. ولا يتحمل القصدُ كما أنوي غير قراءة محددة لظاهرة ما أو معيوش يشغل حيزا كبيرا من حياتنا اليومية الواقعية.

أود أن أشير إلى ما يعنيه العمل على إحياء مناقب السيدة الزهراء بنت النبي، والتحشيد الشعبي ضد من أصاب ضلعها ـ بنص الرواية ـ وإشاعة مشاهد مظلوميتها، وحمل نعشها الرمزي والمسير به في مناطق الفقراء ـ ما يعنيه في أبعد مدياته الدالة ـ لا يحتمل تأسيسا دينيا خالصاً. وبحسب ما توحي إلى ذلك مراسيم التحضير الديني للمرموز؛ إنه أقل من ذلك بكثير، ولا يعدو ـ على ما يحمله من قداسة. سوى أن يكون طقسا دراميا أهلياً، ليس يتعدى موضوعات لها صلة بالدولة وصور الحكم، ما يجعل من شأن جماعة معينة أن تدعي دون غيرها امتلاك استعماله، وبالنحو الذي يجعل منه نسختها الحصرية في الطقوس المحلية، ومن ثم امتلاكها شرعية العمل على تدشينه في الواقع بحجة إحياء شعيرة من شعائر الله. وبالتالي، يوصَم من يتخلف عن تأدية هذه الشعيرة بالمقصر، وهو ما لفت نظري في مطبوع على جدارية معلقة في غير شارع يقول: (لا تقصّروا في نصرة الزهراء...) ربما، أتفهم أن إحياء مثل هذا الطقس وسواه يتقوى في واقع تعددي يُمليه العمل العفوي في فضاء ديمقراطي مفترض، تسعى جماعة فيه لإثبات حقها في إدامة هويتها، التي يهمها استدعاؤها، أسوة بأحقية جماعات أخرى في ممارسة طقوسها المتنوعة. ولكن، ما يجري ـ عمليا ـ هو أقرب ما يكون إلى نشاط عابر ينفتح بحكم الواقع على حزمة من التفسيرات ليس مستبعدا من بينها؛ تأكيد حضور "أنا" الجماعة "المؤمنة" على حساب تغييب "أنوات" جماعات أخرى لا تنشغل أو لا تعبأ بمثل هذا الاحتفاء، ولا يتصدر جدول أولوياتها اللازمة. حيث يتأكد لهذه الـ "أنا" احتكارها له بمجرد أسبقيتها الإجرائية في الاستعمال.

إن مثل هذا التأكيد يعني في ما يعنيه؛ رغبة واعية في صناعة شعار تهييجي/تحريضي يجري بمقتضاه استنفار الموالين، وترسيم إيديولوجيتهم التي تترقى إلى مستوى عمل عصبوي، ليصبح الحديث عن منقبة بنت الرسول والتذكير بمظلوميتها مانفيستو عمل سياسي حصري يتأمل اجتذاب جمهور واسع وعريض. أو تجسيد واقعة مادية بحكم إذكاء عامل السيطرة الرمزي المتحقق فيهم، وهذا كله سيبارك عمل من ينضوي تحت ظلاله، ويكفل له مراتب الرضوان ويمنحه الشرعية والفلاح؛ ويُفهم من خلاله مناط الدين والدولة والسلطة المتخيّلة. وهو ما يُلمح إلى وجود سلطة رابضة، تتوارى، مثلما تحظى بشرعية تستند إلى المعتقدات وتتولد عنها، وبالتالي تملك القدرة على فرض مشيئتها في عمل مشترك حتى ولو كان ذلك في وجه مقاومة أفراد آخرين يساهمون في العمل المشترك ذاته.

وفي هذا السياق أطرح التساؤل الآتي؛ كيف يتسنى لدولة عصرية (وأركز هنا على دولة وليس حكومة) تفترض مناخا تعدديا صحيا أن تنهض بأعبائها الوظيفية وفيها برنامج سياسي وثقافي مدني يحكمه مثل هذا التعقيد؟

أؤكد مرة أخرى؛ ليس الخطورة في أهمية بيان مقام الزهراء وعلوّهُ، ولا في حق جماعة في المبايعة والموالاة لأي ولي من أولياء الله، إنما في طريقة تعبئة الناس، وفي ما تصنع موجهات هذه التعبئة من تسييس يستحدث نمطا من الولاء بـ لبوس ديني جديد.

وأشير إلى (التعقيد) مرة أخرى، وإلى معاينة مقدار ما يمكن أن ينتج عنه من أثر. ففي فضاء مدني تعددي يعتبر استعمال الأيقونة الدينية كمرموز بالنسبة لجماعة سياسية تعقيدا لعمل مكونات هذا الفضاء وتغييبا للغة المشتركة فيه، وان الاستعمال الرمزي فيه هو الآخر في حد ذاته ليس جديدا أو مستحدثا، مما يسهم في التعقيد أيضا.

في العراق اليوم تختبر القوى الحاكمة نسخها ووصفاتها ذات الصبغة الدينية وتُقبَل بحكم جِدتها، وبحكم الفضاء الشعبي (خارج الزمني) الذي يسمح لها العمل بفاعلية، لكنها لا تصلح في الواقع إلا بوصفها مزيّة حصرية يفيد من توجيهها قلة في مقابل مستوى عال من "القهر المعرفي" الممارَس على سلوك الأتباع والموالين، وعلى حساب "معنى" الاعتقاد الذي يدين به العوام من الناس، وهذا هو حال ما كان يجري في أوروبا القرن السادس عشر الميلادي.

وبالاستفادة من وقائع الماضي، أرى أن فاعلية السلطة ذات الطابع الديني سينحسر عملها مع الموالين شئنا في ذلك أم أبَينا، بحكم انكشاف غائيتها العملية، مع إدراكي الشخصي لفاعلية البعد الرمزي الذي يجري توظيفه في إدامة عمر مثل هذا التحشيد، وكيف تصنع عوالم الترميز مقابلا رمزيا لحالات فعلية، وتفترض أبعد من ذلك عوالم مخيالية أيضا، لها قدرة على خلق عوالم متحررة من المقاصد، ولكن، بالرغم من محاولات تأجيل تسمية الأسماء بمسمياتها، يمكن تحديد وفهم مثل هذه المقاصد العصية، حينما تُفتَضح في صيغ خلاف سياسي، أو تصدٍ لزعامة، أو تصارع على "معنى" المقدس. ولا يبتعد معنى ما يجري في كل هذا عن كونه مدّ هوّة سحيقة أمام الأتباع ـ بتعبير دريد ـ بين الرغبة في التسمية المباشرة وبين حالة "تأجيل" تحجب هذه الرغبة وتواريها.